ثروتنا الخلقية

بقلم الكاتب الكبير الأستاذ محمد توفيق دياب

ثروتنا الخلقية تعبير غير مألوف وإنما المألوف أن يتكلم الناس عن الثروة العقارية ، أو الزراعية أو المعدنية ، فيكون كلامهم مفهوما .

ويتحدثون أحيانا عن الثروة الفكرية أو العلمية أو الفنية — يريدون آثار العلماء والأدباء وأصحاب الفنون ، مما نقرؤه فى الكتب والصحف ، أو نشاهده فى المعارض والمتاحف . ولكل أمة نصيبها من هذه الثروات .

أما " الثروة الخلقية " فتعبير أزعم أنه جديد ، ألقى فى روعى من حيث لم أحتسب . ذلك أنى أردت اختيار موضوع لهذا المقال ، فلبثت بضعة أيام كلما عرض لى موضوع ، زهدت فيه حتى صحوت ذات صباح ولسانى يقول — " ثروتنا الخلقية " ، فأيقنت أن النفس الباطنة كانت يقظى تشتعل وتبحث ، حتى اهتدت الى هـــذا الموضوع أو هذا " الاكتشاف " .

وليس جديدا أن يبحث الباحث فى موضوع الأخلاق ، فهو مبحث النـاس فى جميع الأجيال ، وإنما الجديد ، فيما أعلم ، أن تسمى أخلاق الأمة أو أخلاق الفرد " ثروة " مع أن الأخلاق لا توزن كما يوزن القطن ، ولا تكال كما يكال القمح ، ولا تعد كما تعد الجنيهات أو ما يمثلها من الأوراق . والأخلاق كذلك لا تحصى كما تحصى مؤلفات العلماء أو آثار الأدباء ورجال الفن فى كل جيل . إذ الأخلاق لطائف نفسية مودعة فى القلوب والصدور ، بل القلوب والصدور التى نعرفها بين الجوانح ليست أوعية للأخلاق إلا على سبيل المجاز ، فكيف إذن نسمى هذه الوظائف المعنوية ثروة ؟

لكن نفسى الباطنة احتجت على هذا المنطق . قالت "سبحان الله ! ، ألا يكون ثروة إلا ما يؤكل ويشرب ويوزن ويكال ويكتب ويقرأ ؟ ! اذن ماذا تقول فى الكهرباء ؟ وهل تحسها الحواس مقطوعة عن الأسلاك ؟ هذه القوة التى تكون نورا فتضىء ، وتكون نارا فتحرق ، وتكون حياة لكثير من المرضى ، وتكون موتا يعاقب به القتلة فى أمريكا ، هذه القوة الهائلة التى تدار بها المصانع فى جنبات الأرض ، ويتضاعف بها نشاط العمران كل يوم — ألا تسميها ثروة ، لا لسبب سوى أنك لا تعرفها الا بآثارها ؟ وهى مع ذلك تقاس . نعم لا توزن بالرطل ولا تكال بالإردب ، لكنها تقاس بالكيلوات ، وتحصى بالعداد ويُشكى غلاؤها ويسرق تيارها ويرفع الأمر فيها الى القضاء .

الأخلاق ثروة للافراد والأمم ، وإن تكن صفات معنوية موطنُها النفوس . بل هى لاتكون ثروة ، الا اذا كانت النفوس موطنَها . ولو قرأ قارئ كتب الأخلاق من عهد أرسطو الى عهد بن مسكويه ، الى عهدنا الحاضر ، لمجرد الإلمام والاطلاع ، دون التخلق بما فيها والانطباع بمعانيها ، لظل ضميره فقيرا الى الأخلاق . وان امتلأ رأسه ببحوثها ومسائلها . كدارس القرآن الكريم من حيث فصاحة بيانه ، وإعجاز أسلوبه ، أومن حيث أحكام الفقه وعلم المواريث — قد يخرج من دراسته قرآنى البيان دون أن يتخلق باخلاق القرآن ، وقد يخرج من دراسته أعلم العلماء بالفقه والتوريث دون أن ينير قلبه بروحية القرآن .

و إنما ضربنا هذه الأمثال برهانا على أن الخلق موطنه النفس والضمير ، وليس موطنه الذهن والدماغ كالحساب والهندسة . فكم من رءوس فياضة بالمعارف تصحبها نفوس فياضة بالرذائل ، وكم من رءوس لاتكاد تعرف أحوال القراءة والكتابة ، تصحبها نفوس كبيرة وهمم عالية وخلق كريم .

لم يكن محمد رسول الله يقرأ أو يكتب . ولم يكن يقرأ أو يكتب محمد كبير بيت مصر المالك .

لكن محمدا رسول الله أحيا الإسلام بوحى ربه ؛ لأنه كان على خلق عظيم ، بشهادة أصدق القائلين ، وشهادة نوره الساطع فى العالمين . ومحمد جد الفاروق ، أحيا مصر الحديثة لعهده ، بوحى من ضميره ، لأنه كان عظيم الخلق ، بشهادة ما بعث فى مصر من عظمة لو اتصلت حلقاتها ، لكانت أمتنا اليوم من كبريات الأمم .

* * *

ثروة مصر الخلقية ، تتألف من أخلاق أفرادها ؟ كما تتألف من أموالهم ثروتها المالية . و إنى لأخشى أن تكون ثروتنا الخلقية ، مرهقة بالديون ، مهددة بالإفلاس — كثروتنا العقارية . وليس الدائنون فى هذا المجال المعنوى — بنوكا ومصارف ، أو مستغلين دخلاء يرهقوننا بالربا الفاحش . انما الدائن الذى يهدد كياننا الأدبى ، انما الغريم الذى يطارد فى نفوسنا أكرم عناصرها ويكاد يخنق فى ضمائرنا أسمى معانى الرجولة ، انما العدو اللدود الذى يفتك بنزعاتنا الى الخلق العظيم — انما ذلك الدائن المرهق ، وذلك الغريم المنح ، ذلك العدو اللدود ، هو الأنانية ، هو الافراط المنكر فى حب الذات ، هو استهانتنا المنكرة بواجباتنا ، واستهانتنا المنكرة بحقوق من سوانا ، ما دام فى الأمر ارضاء لشهواتنا أو راحة من عنائنا أو تحقيق لمنافعنا .

* * *

تسأل الشاب ، بل الكهل الغنى المستهتر — ماذا يمنعك من الزواج؟ — فيجيبك مالى ولهذه التعة . ان فى المتاع لمباح متسعا لأمثالى .

وما هو بمباح إلا عند من أسقط عن كاهله واجب المروءة ، وواجب بناء الأسرة ، وواجب تقديس الحرمات ، وأسقط عن كاهله حقوق ذويه من العشيرة والأهلين .

فإن يقصد بالمباح ، تلك المباذل التى إن أجازها القانون ، فقد لعنها الله ، فيالله من متاع وبىء ، تطيب لهم خبائثه حتى أرذل العمر .

لكنها الأنانية ، فيها إرضاء لشهواته ، و إراحة له من عناء الزوج والولد .

تسأل الموظف — أو نقول بعض الموظفين ، حتى لا يغضب الجميع — ماذا يشغل بالك ويملك عليك أحلامك بالليل ، ولبك بالنهار ؟ فيجيب " درجة رابعة خالية " تسأله " وهل أنت أحق زملائك بها ؟ " يجيب كلا — اذا كانت المسألة بالأقدمية . لكن المسائل كلها اليوم محسوبيات وصلات ووسائط ووسائل " ويكاد يبكى المسكين ، ويسب الأولين والآخرين ، ويدعو على الدنيا بالخراب — وليته صاحب حق . . . ولكنها الأنانية .

الأنانية هى التى تزين للطالب أن يطلب العلم للشهادة ، لا الشهادة للعلم ، حتى إذا أحرزها ، اتخذها صكا على الدولة يتقاضى به الجلوس طيلة حياته إلى المكتب بأجر محدود ولكنه " مضمون " .

قاتل الله الأنانية فهى التى تزين للصانع أن يكسل ما استطاع الكسل ، وأن يقصر فى الاتقان ما استطاع التقصير .

هى التى تزين للتاجر أن يجمع أرزاق الناس بثمن رخيص ، حتى اذا صرخت حاجتهم اليها — باعهم إياها بأفحش الأرباح ، لولا حماية التسعيرة ، التى يغافلها كلما استطاع .

قاتل الله الأنانية . هى التى تزين لشاهد الجريمة أن يكتم شهادته عن القضاء ، رهبا أو رغبا ، فتحفظ أكثر القضايا ، وتهدر دماء المئات من الضحايا كل عام .

هى التى تزين للأدنياء شهادة الزور ، وللفتاك قتل الأبرياء بثمن معلوم . قاتل الله الأنانية هى التى فككت أواصر الجماعة المصرية فى المنزل والنادى ، وفى المدينة والقرية ، وكلما اجتمع ولو شريكان اثنان فى عمل ، قطعت ذات بينهما كأسرع من قطع السكاكين .

هى التى تزين لصاحب الأفدنة الألف ، أن يبذل عفا لثوره ، أضعاف ما يبذل أجرا لعامله .

قاتل الله الأنانية فهى التى تغل يد الغنى عن إعانة الملهوف إذا نزلت به النكبات ومزقته الصواعق ،

هى التى تمزق الجماعة أحزابا والحزب شيعا — والشيعة آحادا متحاسدين . هى التى تجعل المناصب مغانم ، وتجعل المغانم قسمة بين المحظوظين . هى التى تجعل الكبير مزهوا بطرا ، وتجعل الصغير حاسدا ضجرا .

قاتل الله الأنانية ، فهى التى تكاد تحمل كل مصرى على أن ينسى المصرى فى وقت محنته ، حتى لتخشى أن ينسى الجميع هذا الوطن ، إن حلت به الكارثة .

* * *

إن لنا فى فرنسا عظيمة الأمس وضحية اليوم — لعبرة أى عبرة .

ثروة فرنسا فى المال لا تحصى . زراعتها ، معادنها ، صناعتها — كانت مثار حسد النظائر والحارات . علومها — آدابها فنونها "مثل عليا للعبقرية" لكنها انهارت بعامل واحد صارح به الملأ شيخها " بيتان " .

قال وتكاد عيناه تبيض من الحزن وهو كظيم ، إن فرنسا انهارت ؛ لآفة فتاكة طغت فيها على الأخلاق . ولم تكن تلك الآفة سوى الأنانية — أى حب النفس ونسيان الوطن . ولو تلوت عليكم كلامه المحزن فى هذا المقام لأخذكم فى الخوف على مصر مثل مايأخذنى . ذلك أن بطل فرنسا بالأمس ، والفارق فى ويلاتها وكروبها اليوم — يصف الأخلاق التى أودت ببلده العظيم ، وكأنما يصف الأخلاق فى مصر اليوم .

أفلا يحق لنا إذن أن نعتبر ، أفلا يحق لنا أن نوقن من أن ثروة الأخلاق إذا أفلست لم تغن عنها ثروة المال ولا ثروة العلم والأدب فتيلا ، وإلا لأنقذت فرنسا قناطيرها المقنطرة وأدبها الأسمى وفنها الرفيع ؟

أليس يحق لنا بعد هذه العبرة الفاجعة ، أن نسمى أخلاق الأمة ثروة ، وأن نرفعها فوق ثروة العلم وثروة المال لأنها ثروة النفس وثروة الضمير وثروة الروح .

* * *

إذا كان مصرع فرنسا آية رهيبة على أن الأمم الأخلاق وجودا وعدما ، كما قال شوقى وأيدته فاجعة فرنسا واعتراف بيتان ، فهنالك آيتان أخريان لن ينساهما التاريخ :

أريد آية الأخلاق فى بريطانيا العظمى ؛ وآية الأخلاق فى اليونان الباسلة المتواضعة ! من كان يوقن بعد انهيار فرنسا ، بل قل بعد انهيار أوربا الوسطى وأوربا الغربية كلها — أن تصمد تلك الجزيرة العجيبة هذا الصمود العجيب . إنى لا أريد أن أعرض لشؤون الحرب ولا لشؤون السياسة فى هذا المقال ، لأنى أنشره فى مجلة الشؤون الاجتماعية وما أحب أن أعدل بأحاثها عن شؤون الاجتماع .

غير أن انتزاع الشواهد من مسالك الأمم فى الخطوب مطلب أساسى لكل من يبحث فى شؤون المجتمع ، وما أظن فى الدنيا انسانا ، ولو كان هـذا الانسان ألمـانيا أو إيطاليا سلت من نفسه الأحقاد إلا يحنى رأسه إجلالا لعظمة الثروة الخلقية التى تجلت فى بريطانيا واليونان .

أما اليونان فروعة موقفها ، حديث القاصى والدان ، وإن استطاع الايطاليون فى الغـد مالم يستطيعوه معها بالأمس ، فقد سجلت اليونان لنفسها صفحة مجد لن تزول .

وأما بريطانيا فالحديث فيها أطول وأصفى مما تتسع له السطور الباقية .

لكننى أعلن إعجابى على مسمع من أبناء وطنى جميعا — بالبطولة التى أدهش البريطانيون بها الدنيا فى ستة شهور ، لا من حيث الاستماتة والاستبسال فى البر والبحر والجو ، بل كذلك وفوق ذلك من حيث اصطبار المدنيين للكاره الجلى ، وخروجهم عن أكثر أرزاقهم تمويلا لحرب قال رئيس حكومتهم إنها قد تطول سنين .

وما أنس لا أنس حملة النواب البريطانيين والصحف البريطانية على وزير مالية انجلترا يوم أعلن فى مجلس العموم أنه رأى جعل ضريبة الدخل نسبة تتراوح بين خمسين وثمانين فى المـائة من رزق كل مواطن . وما أنس لا أنس حملة النواب والصحف عليه فى ذلك الحين ، لا لأنه اشتط وأسرف فى تقـدير الضريبة ، بل لأنه بالغ فى القناعة والإشفاق ، ثم تجاوبت الأصداء فى أنحاء البلاد بأن الأمة على استعداد لبذل المزيد فداء لبريطانيا العظمى — نعم العظمى ، لا بالأساطيل ، فغيرها أساطيل أحدث ، ولا بالجيوش فلغيرها جيوش أضخم ، ولا بالطائرات فلغيرها طائرات أكثر — ولكن بريطانيا العظمى بهذه الأخلاق — بهذه الثروة المعنوية التى لا تفنى على الإنفاق .

* * *

ليس رجلا من لا يعجب بالرجال ، ولا عظيما من لا يعجب بالعظمة . وأمتنا المصرية مهما أخف عليها عواقب الأنانية — أمة عريقة النسب كريمة العنصر ، فيها عظمة وفيها رجال .

والله أدعو أن يوفقنا للعمل على تنمية ثروتنا الخلقية بقدر ما نعمل على ترقية ثروتنا الزراعية والعلمية ، أو أضعاف ذلك ، وأن يجعل اهتمامنا بمقاومة "الأنانية" — أعنى دودة الأخلاق — بقدر اهتمامنا بمقاومة دودة القطن وسائر السموم والحشرات .

محمد توفيق دياب